المجلة العربية للعلوم الانسانية ــ العدد الأول ــ المجلد الأول ص ص (١١٦ ــ ١٣٣)

قضية التعريب في المغرب العربي

د. عبد المالك خلف التميمي

ملخص

يعالج البحث الوضع الثقافي في المغرب العربي في حقبتين تاريخيتين هامتين ومختلفتين. الاولى هي الحقبة الاستعمارية والتي تمتد منذ احتلال الجزائر ١٨٣٠ حتى نيل الاستقلال والثانية هي الفترة التي اعقبت الاستقلال.

في البداية بحث قضية التعريب في هذه المنطقة تتطلب الرجوع الى الجذور التاريخية للوضع الذي كان سائدا في الفترة الاستعمارية لأن التأثير الثقافي الغربي جاء نتيجة لنشاط استعماري مبرمج ومنظم لفترة تقترب من القرن ونصف القرن.

ان اخطر انواع الاستعمار واكثره تأثيرا هو الاستعمار الثقافي، فلم يكن الاستعمار في المغرب الغربي استعمارا عسكريا ولا اقتصاديا فقط بل كان ثقافيا ايضا يهدف الى محو الشخصية الوطنية ولغة شعب المنطقة وتراثها لانه يعتقد بأن أهدافه لن تتحقق ووجوده سيتعثر وعمره لن يكون طويلا بدون التأثير الثقافي.

لقد تنوعت النشاطات الثقافية الاستعمارية واتخذت أساليب متعددة وبامكانيات كبيرة ومتقدمة لم يستطع المجتمع العربي في هذه المنطقة مواجهتها او حتى وعي ابعادها المستقبلية نتيجة لتخلفه وثقافته التقليدية المحدودة الا بعض قواه الوطنية.

لقد كان هدف الفرنسة ومحو الشخصية الوطنية في الاساس فكرة الادماج وذوبان المجتمع العربي في المغرب العربي في الوجود والثقافة الفرنسية ثم لتحقيق الاهداف الاستراتيجية العسكرية والسياسية والاقتصادية في الشمال الافريقي وفي القارة الافريقية كلها.

لقد واكب هذا النشاط الثقافي الغربي في الفترة الاستعمارية هجرة المستوطنين الاوروبيين الى هذه المنطقة حيث لعب هؤلاء دورا اقتصاديا وثقافيا هاما بدعم الوجود الاستعماري وتثبيت وجوده. ان الاستعمار الذي كان يدعي انه جاء ليأخذ بيد الشعوب المتخلفة الى التقدم أثبت من خلال استعماره في المغرب العربي زيف ادعائه فرسخ التخلف. وان نشاطاته العسكرية والاقتصادية والثقافية لم تكن لتخدم الا مصالحه بالدرجة الاولى، وبعد مضي فترة طويلة من العمل النوعي والمكثف للقضاء على عروبة المنطقة ولغتها كان هذا العمل مؤثرا في القوى الوطنيةلتعمل في المقابل جاهدة للحفاظ على الحد الادنى من اللغة العربية والتراث، ونتيجة لتلك الجهود خلقت في المنطقة مشكلة كبيرة تعتبر من المشكلات الرئيسة التي واجهت دول المغرب العربي بعد الاستقلال.

بعد ان نالت دول المغرب العربي الاستقلال واجهت تركة مثقلة على المستوى السياسي والاقتصادي والثقافي كان لابد من مواجهتها وكانت ولا تزال قضية التعريب من ابرز القضايا التي تأخذ اهتمام دول المنطقة وقواها الوطنية، ولكن النظرة الى التعريب والوسائل المتبعة في هذا الميدان تختلف من بلد مغربي الى آخر، فبينما لجأت الجزائر الى اسلوب التركيزعلى التعليم في المراحل المختلفة كطريق للتعريب لجأ الآخرون الى اسلوب يختلف فبعضهم اكتفى باسلوب الوعظ الاعلامي مثلا، كما ان العقبات امام التعريب كثيرة بعضها ناتج عن الامكانيات المحدودة وبعضها المتعلق بعدم قناعة فئة من الناس والمتأثرين بالثقافة الغربية بالتعريب والبعض الاخر له علاقة بالجهود المضنية التي تبذلها القوى الاستعمارية حتى بعد الاستقلال لعرقلة عملية التعريب عن طريق استمرار التأثير الثقافي بطرق مباشرة وغيرمباشرة. ان التعريب المطلوب ليس تعريبا للمصطلحات وللتحدث بالعربية فقط ولكنه ايضا تعريب للفكر والثقافة إنه قضية حضارية.

ان تقييم التعريب القائم في المغرب العربي منذ الاستقلال يوضح أنه رغم العقبات الكثيرة التي واجهها و يواجهها إلا أن هناك تقدما ملحوظا وإن الجيل الجديد يتشرب العربية و يتقنها لكن هذا الاعتقاد وهذه الحقيقة لاتجعلنا نغفل السلبيات التي

يواجهها التعريب فاعداء التعريب ينشطون والاستعمار الثقافي مستمر في ممارساته وبعض القوى الوطنية لم تأخذ هذه المسألة ضمن مهماتها الاولية التي يجب ان يتصدى لها كما أنه في كثير من الأحيان يأتي التقدم في مسألة التعريب نتيجة لجهود فردية فإلى أي مدى تصبح هذه المسألة قضية عامة ووطنية وتهدف إلى تعريب الفكر بالتركيز على النوعية في هذا النشاط يكون المجتمع العربي في المغرب العربي قد تقدم خطوات ايجابية على طريق التعريب وهناك بوادر جيدة في هذا الاتجاه.

ان تعريب المنطقة اختيار وطني لتأكيد التحرر من الاستعمار وله علاقة بعملية التنمية كما يؤكد انتماءها العربي ويحافظ على شخصيتها الوطنية وعروبتها وتراثها.

مقدمـــــــة :

لقد واجهت أقطار المغرب العربي مشكلة كبيرة بعد نيلها الاستقلال ، وهي مشكلة التعريب . انها من القضايا التي ليس من السهل التغلب عليها في فترة زمنية قصيرة ، نظراً لأنها من الأمور التي تتعلق بثقافة المواطنين والتأثير في عقولهم ، ولانها جاءت على انقاض استعمار طويل سيطر على تلك المنطقة وكان نشاطه الثقافي أساسياً لاستمرار سيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

لقد كان الاستعمار الثقافي سابقاً ومواكباً للاستعمار العسكري الغربي للمغرب العربي ، واقد أدركت الامبريالية منذ البداية أن التأثير الثقافي من امضى الأسلحة التي يمكن الاعتماد عليها لتحقيق أغراضها السياسية والاقتصادية في المناطق التي تقع تحت نفوذها ، ولهذا اعطى الاستعمار ، في مغربنا العربي ، هذه المسألة أهتماماً خاصاً وبذل جهوداً كبيرة لمحو الشخصية الوطنية والعربية لهذه المناطق . وقد كان يهدف من وراء سياسته التعليمية والثقافية الى :

محو الشخصية الوطنية العربية لتحقيق سياسة الادماج ، والتي تقوم على أساس أن هذه المناطق جزء من فرنسا ، ثم ابقاء الشعب العربي في هذه المناطق متخلفاً لا يعي واقعه فيثور عليه ويحرر بلاده . أخيراً خلق جيل مدجن متأثر بالثقافة الغربية و بخاصة الفرنسية ليكون عقبة من أبناء هذه المناطق لأي تطور وطني في المستقبل . فما هي

طبيعة التعليم والثقافة في ظل الاحتلال الغربي لمغربنا العربي ، ومن ثم كيف واجهت وتواجه هذه الأقطار العربية هذه القضية ؟

التعليم والثقافة في ظل السيطرة الاستعمارية :

ان الحديث عن ممارسات الاستعمار الثقافي للقضاء على اللغة العربية ، واحلال اللغة الفرنسية أو الايطالية محلها في مغربنا العربي ، يقودنا في البداية للحديث عن طبيعة التعليم والثقافة في هذه المناطق والاتجاهات التي كانت تسيطر عليها أثناء السيطرة الاستعمارية .

يأتي التعليم التقليدي الكتاتيبي في المقدمة ، فهو الذي كان مسيطراً في عهد السيطرة العثمانية وما قبلها واستمر كذلك في عهد السيطرة الغربية .

وهذا النوع من التعليم أساسه تعليم ديني يقوم على تحفيظ القرآن والقراءة والكتابة البسيطة . وهذا الاسلوب لم يكن ينفرد فيه قطر في المغرب العربي أو حتى أقطار المغرب العربي فقط ، وإنما كان النمط والاسلوب السائد في الوطن العربي كله . والاسهام الفعلي الذي قدمه هذا النوع من التعليم عبر الزمن ؛ ورغم الضغط والضعف والظروف الصعبة هو الحفاظ على اللغة العربية وتراثها الثقافي وان كان في إطاره التقليدي غير المتطور .

والنوع الثاني من التعليم هو التعليم الأهلي الحديث الذي كان تحت اشراف المنظمات والاحزاب الوطنية في فترة السيطرة الاستعمارية ، وكانت مهمته الأساسية الحفاظ على اللغة العربية ، والشخصية الوطنية ، وساهمت به بشكل أساسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وحزب الشعب وغيرهما من المنظمات الوطنية (انظر الجدول رقم ١) .

اما النوع الثالث من التعليم الذي كان سائداً في فترة الاستعمار الغربي ، فهو التعليم التبشيري ، فالتعليم كان وسيلة هامة من وسائل نشاط الارساليات المسيحية التبشيرية لنشر المسيحية وتحويل الناس عن دينهم .

وقد شهد القرن التاسع عشر نشاطاً ملحوظاً لهذه الارساليات سواء كانت كاثوليكية أو بروتستنتية مواكبة النشاط الاستعماري الغربي . وفي الحقيقة ان هذا النوع من التعليم التبشيري سبق الاستعمار العسكري ، فقد بدأ منذ العصر التركي

الأخير. وعن طريق التعليم كانت تعتقد هذه الارساليات انها تستطيع تربية الناشئة على ثقافة مسيحية، وتساهم عن طريق هذه الوسيلة بالتأثير على الناس لتحويلهم الى المسيحية. وليس مجالنا هنا أن نبحث الى أي مدى نجحت أو فشلت هذه الارساليات في نشاطاتها تلك، ولكننا نريد ان نؤكد على أمرين: الأول: ان التبشير المسيحي الحديث قد واكب حركة الاستعمار في القرن التاسع عشر واحتمى بها ولم ير كثير من المبشرين تناقضاً بينهم وبينها، بل رأوا فيها جسراً يعبرون عليه الى العالم غير المسيحي ليتمكنوا من التأثير فيه. والأمر الآخر هو أن المبشرين اتخذوا التعليم وسيلة تبشيرية في المناطق التي وقعت تحت السيطرة الاستعمارية الغربية ومنها المغرب العربي وهكذا قامت الارساليات بافتتاح العديد من المدارس التي تقوم بالتعليم الحديث مصحوباً بالدين المسيحي (التميمي، ١٩٧٤، ص ١٢).

والنوع الرابع من التعليم في فترة السيطرة الاستعمارية هو التعليم الاستعماري أو المدارس التي افتتحتها السلطات الاستعمارية، كانت هذه مقتصرة على أبناء المستوطنين الغربيين وأبناء الجاليات الأجنبية في هذه المناطق، وقد كان ممنوعاً على أبناء المواطنين دخولها ومهمة هذه المدارس خدمة هؤلاء تمشياً مع السياسة الاستعمارية في تطبيق مبدأ الادماج وتطبيق قانون التعليم الالزامي لمواطني الدولة الاستعمارية، وسنأتي في الحديث عن هذا القانون فيما بعد.

ونستخلص من هذا ان ابناء المواطنين كانوا محرومين من التعليم الحديث وأمامهم فرصة دخول الكتاتيب، وهي محدودة ومن ثم أمام بعضهم المدارس التبشيرية التي كان كثير من المواطنين يترددون في ارسال ابنائهم اليها خوفاً من التأثير الديني ومن ثم تنصيرهم. وأعداد قليلة وجدت مجالها في المدارس الحرة التي كانت تشرف عليها التنظيمات الوطنية.

والجزائر تعتبر من أكثر مناطق المغرب العربي التي كان للاستعمار الثقافي تأثير فيها لطول فترة الاستعمار، ولأنها أول منطقة استعمرتها فرنسا في الشمال الافريقي.

لقد كانت فرنسا تعتبر الجزائر جزءاً لا يتجزأ من ترابها. وهذا يعني أن التعليم في هذا القطر العربي لا يختلف عن التعليم في فرنسا نفسها، والفرق بينهما أن الطفل الفرنسي في فرنسا في وطنه وحر في اختياراته، أما الطفل الجزائري فقد كان مفروضاً

جدول رقم (١)

محتوى برامج حزب الشعب الجزائري

المادة	عدد الساعات				ملاحظات
	الصف الأول	الصف الثاني	الصف الثالث	الصف الرابع	
الدين	٦	٥	٥	٤	نلاحظ زيادة
اللغة العربية	١٢	٩	٨	٧	عدد ساعات
الحساب والهندسة	٦	٦	٥	٥	تدريس اللغة
الجغرافيا والتاريخ	١	٢	٤	٤	العربية
الصحة	٢	٢	٢	٢	
التربية الاخلاقية	—	—	—	٢	
الخط العربي	—	٣	٢	٢	
الرسم	—	—	١	١	
الاعمال اليدوية	٢	٢	٢	٢	
الاناشيد	١	١	١	١	
الرياضة البدنية	٢	٢	٢	٢	
المجمـــوع	**٣٢**	**٣٢**	**٣٢**	**٣٢**	

المصدر: الدكتور/ تركي رابح ، **التعليم القومي والشخصية الوطنية** ، الجزائر، ١٩٧٥ ص٢٨٥

عليه تعلم اللغة الفرنسية كلغة قومية وممنوعاً عليه تعليم لغته القومية الاصلية والسبب أن الاستعمار يعتبرها لغة اجنبية . ورغم أن المدارس الحرة قد ظهرت في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن ، لكن الجزائري لم يستطع متابعة الدراسة فيها لمحاربة الاستعمار لمثل هذه المدارس (مصايف، ١٩٧٣، ص ٥٤) . لقد كان غرض فرنسا تحقيق فكرة الادماج . وحول هذا الأمر قال الاسقف لافيجري لرجال الكنيسة في الجزائر: « يجب إنشاء المدارس في كل مكان وكما تعلمون انها الاداة القوية والضرورية لتحقيق سياسة الادماج حيث نستطيع بفضلها إذابة كل العناصر التي تنتمي إلى أمم مختلفة .. ان فرنسا لا تنجب كثيراً من الرجال لتعمير الجزائر، وعليه

يجب ان نعوض ذلك بفرنسة المليونين من برابرتنا المستعمرين » (التميمى ، يناير ١٩٧٥ ، ص ١٤) .

وفي الحقيقة ان الاستعمار الفرنسي منذ وطأت قدمه أرض الجزائر كان يحاول ابادة اللغة العربية ، و يفرض على الناس أن يتعلموا الفرنسية . وقد بذلت جهود كبيرة من قبل المدرسين الفرنسيين للقضاء على اللغة العربية كمظهر من مظاهر الشخصية القومية . ولكن تلك الجهود كلها رغم تأثيرها لم تقض على اللغة العربية ، فقد ظل الفلاحون والبدو وابناء الاحياء الشعبية ينطقون بها ويحافظون عليها (النقاش ، ١٩٦٤ ، ص ٤٨) . وما صمود اللغة العربية بوجه السياسة الاستعمارية الرامية الى القضاء عليها ولفترة طويلة من الزمن الا دليل على أنها لغة حية ولغة شعب ولغة حضارة . ان ضعفها وانحلالها في فترة الاستعمار كان نتيجة للجهود التي بذلت ضدها . وليست الأزمة في اللغة نفسها بدليل انها تعود اليوم الى وضعها الحضاري والى اصالتها بعد الاستقلال .

لقد بذل الاستعمار جهوداً كبيرة في مواجهة اللغة العربية . ومن هذه الجهود احياء لغة البربر ووضع قواعد وقواميس لها رغم أنها لغة غير مكتوبة ، اضافة الى الغرض المزدوج لوجود المستوطنين الاوربيين الاقتصادي وللقضاء على اللغة العربية (طوبال ، ١٩٧٩ ، ٢٩١) .

لقد كان الاستعمار يدعي و يروج بأن اللغة العربية ليست لغة حضارية وأنها إن عادت فستعيد الجزائر الى القرون الوسطى ، ولذا واجه انصار الثقافة الفرنسية من المواطنين أيضاً فكرة التعريب بعد الاستقلال مستندين الى ذلك الادعاء .

لقد استكملت التشريعات الفرنسية في الجزائر في ظل الجمهورية الثالثة ، بين ١٨٧٠ ــ ١٩١٤ ، شكلها النهائي عام ١٨٩٧ كما الحقت بها إجراءات وقرارات .

وفي عام ١٩١٢ قررت الجمعية الوطنية الفرنسية الخدمة العسكرية الاجبارية على الجزائريين بصفتهم رعايا فرنسيين ، وقد صدر هذا القرار قبيل اعلان الحرب العالمية الأولى بوقت قصير ، ودفعت الجزائر ثمناً غالياً بعد تجنيد عدد كبير من الجزائريين ليحاربوا في ميادين أوروبية .

وبعد أن اصبح التعليم الابتدائي اجبارياً ومجانياً في فرنسا ، اقتصر تنفيذ القانون على أبناء المستوطنين في الجزائر ، هذا فضلا عن محو معالم الثقافة العربية وجعل اللغة العربية لغة ثانية في المدارس الثانوية (العقاد ، ١٩٦٩ ص ٧٠) . والذي يهمنا في هذا التناقض الواضح والمقصود الذي عمدت اليه السلطات الفرنسية في هذين القرارين : إجبارية التعليم على الفرنسيين فقط والخدمة الاجبارية العسكرية على الفرنسيين والجزائريين . وفي فترة الاحتلال وجد نوع من التعليم يحاول أن يجمع بين التعليم التقليدي والتحديث ، وقد قام الاهالي انفسهم بمبادرات ، وكان تعليماً وطنياً ، ولكنه لم يسلم من تدخل السلطات الاستعمارية والحد منه وفرض القيود عليه ، ومحاولة اخضاعه للتعليم الرسمي الذي تشرف عليه السلطات الاستعمارية . وكان هذا التعليم في الجزائر احسن مثال له (الابراهيمي ، ١٩٦٢ ، ١٩٧٢) .

وكذلك الحال بالنسبة للمناطق الأخرى من المغرب العربي : ففي ليبيا عمل الاستعمار الايطالي على طلينة الثقافة والتعليم ليضمن خضوع الليبيين وقبولهم لادعاء الاحتلال الايطالي بأنه جاء لتمدين الشعب الليبي وتقدمه ، ولذا تأثر التعليم في البلاد بدخول الايطاليين ، إلا أن الكتاتيب ، شأنها شأن الكتاتيب في الجزائر ، استمرت تؤدي دوراً تعليمياً في حفظ اللغة العربية والتراث رغم تخلفها وضيق نشاطاتها وإمكانياتها .

ولم تكن هناك سياسة تعليمية في بداية عهد الاحتلال الايطالي لتعليم المواطنين عدا سياسة ابقاء المجتمع على تخلفه ومحاولة فرض اللغة الايطالية .

لقد استخدم الاحتلال الايطالي المعلمين الايطاليين واستكمل النقص باستخدام الضباط وصف الضباط من قوات الاحتلال للقيام بالتعليم حتى اصبح التعليم في ليبيا تابعاً لوزارة الحرب الايطالية في روما (١) .

وهناك نوع آخر من المدارس وهذه مدارس غربية ايطاليا الحقت ادارتها بوزارة المعارف ووزارة المستعمرات الايطالية . وكانت هذه المدارس ابتدائية فقط ، واقتصر عمل المعلم العربي فيها على تدريس اللغة العربية والدين وتركت المواد الأخرى للمعلم الايطالي ، وكان المعلم العربي مساعداً للمعلم الايطالي . ولكن الاهالي لم

يتحمسوا لارسال ابنائهم الى هذه المدارس ، وفضلوا ارسالهم الى الكتاتيب على أن يخضعوا للتأثير الاستعماري في تلك المدارس .

ونتيجة لذلك ، قررت سلطات الاحتلال وضع الكتاتيب تحت اشرافها (الشيخ ، ١٩٧٢ ، ص ١٨٨) . اضافة الى هذه الأنواع من المدارس ، وجدت المدارس الايطالية ودورها محدود في تعليم ابناء المستوطنين والجالية الايطالية ، وهي تتدرج من رياض الاطفال الى الابتدائي ثم المرحلة الثانوية والفنية (الشيخ ، ص ٢٠١) .

لقد كان الايطاليون لا يعترفون الا باللغة الايطالية الوحيدة المعترف بها في ليبيا في المعاملات الرسمية ، وفي علاقات الناس بالسلطات الحاكمة ، وفي معاملة الليبيين مع المستوطنين الايطاليين ، لذلك كان على الليبيين تعلم اللغة الايطالية وعدم استعمال اللغة العربية . وحرم الايطاليون كل مجال يحاول احياء اللغة القومية والحفاظ عليها حتى أن اسماء الشوارع والميادين في المدن الليبية كانت ايطالية . اضافة الى ذلك كانت سلطات الاحتلال تحول دون وصول الخطابات الشخصية الى المواطنين ما لم تكن مكتوبة باللغة الايطالية (الشيخ ، ص ٢٣٤) . وهذه السياسة التعسفية ضد اللغة العربية ، مورست من قبل الاستعمار في مناطق المغرب العربي الأخرى . ولم تكن مراكش وتونس وموريتانيا والصحراء الغربية أحسن حظاً من غيرها ، ولكن الجزائر كانت أكثر معاناة لطول فترة استعمارها .

التعريب بعد الاستقلال :

عندما نالت دول المغرب العربي استقلالها كانت أمامها قضية من أخطر القضايا التي جابهتها ، وهي قضية التعريب . وبدونها ستتعطل عملية التنمية المطلوبة لهذه المنطقة بعد فترة الاستعمار الطويل الذي سيطر عليها .

والتعريب هو إحلال اللغة العربية محل اللغة الاجنبية ، التي كانت لغة الاستعمار ونشر هذه اللغة القومية بين المواطنين دون النظر الى اصلهم أو محل اقامتهم ولا الى مستواهم الاجتماعي ، أي تعميم اللغة العربية بحيث تكون لغة المواطن في المدرسة والادارة والدبلوماسية والحديث والمنزل .

لقد واجهت أقطار المغرب العربي ، بعد استقلالها ، فراغاً خطيراً في تعليم اللغة العربية في المدارس الرسمية ، وخطورة الأمر ان اللغة القومية لهذا الشعب حوربت

بتعسف في فترة الاستعمار. لقد أقدمت الجزائر مثلاً، على ادخال اللغة العربية في التعليم كلغة قومية، ولكن دون أن تعطيها أهمية في الامتحانات (٢) وهذا الموقف المتردد الذي ليس له ما يبرره، ادى الى تذبذب شخصية الطفل بين اللغتين الفرنسية والعربية.

ان ضعف اللغة العربية الى جانب السبب الرئيسي، وهو الاستعمار ومحاربته لها، يرجع الى عدم وجود الكتاب العربي في المدرسة والى عدم وجود المعلم المتمكن من اللغة العربية، والى النقص في عدد هؤلاء المعلمين، عدا مشكلة الازدواجية اللغوية العربية والفرنسية، فهذه الازدواجية التي كان يعيشها أطفال الجزائر في المدرسة لا تخدم قضية التعريب ولا قضية الاستقلال الوطني والتنمية، هذا الاسلوب سيؤدي الى القناعة بأنصاف المثقفين وأنصاف الفنيين، اضافة الى تردد الجيل بين ثقافتين. وما من حلٍ غير الاعتماد على اللغة القومية في تربية النشء. ولقد اختلفت الآراء في قضية التعريب وتبلورت في اتجاهات ثلاث هي :

الاتجاه المعادي للتعريب والمتمسك بالفرنسية، ثم الاتجاه الجذري الذي يدعو الى التعريب بدون تردد، والاتجاه الوسط الازدواجي الذي يدعو الى التعايش بين اللغتين وعدم التسرع في التعريب.

ان اخطر هذه الاتجاهات هو الاتجاه الازدواجي. و يبدو أن هذا الاتجاه يريد أن تقتسم العربية والفرنسية مواد المنهاج بالتساوي، ولكن في الحقيقة للاستمرار في سيادة اللغة الفرنسية وقصر اللغة العربية على المواد الاجتماعية والادبية.

ان تعليماً معتمداً على لغتين لا بد وأن يقدم صورتين متناقضتين وسيؤدي الى اضطراب يظهر أثره في المستقبل.

ان هذا الجيل يريد أن يتحرر من عقدة النقص، لذا يجب الا نركز في ذهنه عجز اللغة العربية عن مسايرة الركب الحضاري، هذا اضافة الى أن قضية التعريب قضية مبدئية وموقف وطني وقومي تحرري والتردد فيه انتقاص من التحرر والاستقلال (مصايف، ص ٥٥).

و يبدو ان هناك أساسين لدعوى الازدواج اللغوي : **الأول** يدعو للاهتمام باللغتين العربية والفرنسية معاً حتى تتمكن اللغة العربية وتنتشر كمرحلة أولى مراعاة لظروف

البلاد الموضوعية . وهذا التبرير ربما جاء عن حسن نية و بعد دراسة ودراية بالأوضاع الثقافية والتعليمية و بعد فهم عميق لظروف البلاد في الفترة الاستعمارية الطويلة ، بيد أن هناك المحذور الذي يشك في هذه الدعوى و يتهم هؤلاء بأنهم من أنصار اللغة الاجنبية وأنهم عن طريق الازدواج في تعلم اللغتين يهدفون الى عرقلة عملية التعريب وتمييعها حيث أنهم غير قادرين على المواجهة الصريحة والرافضة للتعريب .

ان اصحاب هذه الدعوى في الغالب يدافعون عن مصالح طبقة معينة شاءت ظروف العهد الاستعماري ان تستفيد وأن تتمكن من لغة المستعمر وتجهل لغة الوطن ، وان بقاء اللغة الفرنسية في نظرهم يعني بقاء مقاليد السلطة والادارة في أيديهم ، والتعريب يفقدهم هذه الامتيازات ، ولذا يحاربون التعريب (مصايف ، ص ٦٥) .

ان استناد بعض اصحاب هذا الرأي ، الذي يدعو الى الازدواج اللغوي مبني على أن تجربة التعريب السريع والشامل قد فشلت في بعض اقطار المغرب العربي ، ليس له ما يبرره ، لأن طبيعة الأنظمة السياسية في هذه الاقطار تختلف عنها في الجزائر ، وأن نجاح أو فشل عملية التعريب يعتمد أساساً على طريقة معالجة هذه القضية والوسائل التي تسير عليها والامكانات المتاحة بالاضافة الى الجدية والقناعة والايمان بجدواها .

وهناك الرأي الذي يرى ان ليس المهم التشبث باللغة العربية في التعليم ، بل المهم هو تحرير التعليم من المضمون الاستعماري والرجعي السائد واحلال التعليم الشعبي الديموقراطي مكانه (منشورات جريدة ٢٣ مارس ، بيروت ١٩٧٨ ص ٣٥) .

وفي الحقيقة إن العمل من أجل ثقافة شعبية ديمقراطية وتعميم التعليم ومجانيته مستخدماً اللغة العربية كأداة للتعليم هو الطريق لاعطاء التعريب مضموناً ومحتوى شعبياً يخلق ثقافة وطنية قومية لا يمكن للغزو الثقافي الاستعماري التسلل اليها والتأثير فيها .

ان الاعتماد على اللغة القومية العربية أمر ضروري لاقطار المغرب العربي لتأكيد تحررها من الاستعمار بكل أنواعه . وأن اختيار اللغة العربية في عملية التعليم وتوفير

الامكانات الضرورية لتطبيق هذا الاختيار أمر أساسي وهام، ان الاهتمام ببناء دور المعلمين (٣) اضافة الى جلب المدرسين من اقطار المشرق العربي ضرورة لعملية التعريب في المرحلة الحاضرة.

لقد واجهت عملية التعريب عراقيل كثيرة: منها اثارة موضوع اللهجات المحلية والدعوة الى تبسيط اللغة العربية وتبني اللهجات واستعمال الاحرف اللاتينية بدعوى سهولتها (غلاّب، ١٩٧٧ ص ١٨٠) ان الغرض الحقيقي وراء كل ذلك هو اضعاف اللغة العربية ومواجهة سياسة التعريب التي دخلت منذ السبعينات مرحلة جديدة وهامة. وكان على حكومات المنطقة أن توضح و بشكل صريح موقفها من مسألة التعريب وتتبناه رسمياً في مجال التعليم بشكل أساسي وشامل.

وأسطورة صعوبة اللغة العربية مردود عليها بدليل اهتمام الاجانب بدراستها — فالمستشرقون الذين كرسوا حياتهم، وما زالوا لتعلمها ودراستها يعدون بالآلاف. والعربية كغيرها من اللغات، وان تعلمها بالنسبة لأبناء المغرب العربي اسهل من الأجانب لأنها لغتهم القومية أصلاً ولغة ديانتهم. والقضية ليست قضية اللغة وإنما قضية الناطقين بها وسياسة التعريب ومدى جديته.

اذن نرى أن الموقف من اللغة العربية والتعريب اتضح بثلاثة اتجاهات:

الأول: هو الداعي الى التعريب واعتبار اللغة العربية اللغة القومية الأولى والأساسية في كل مجالات الحياة في بلدان المغرب العربي.

الثاني: هو الاتجاه الداعي الى رفض التعريب واعتبار اللغة الفرنسية اللغة التي يفهمها الشعب، وهي المستعملة، وهي متطورة وصالحة للعلم والحضارة و يجب اهمال لغة حية كهذه وتبني لغة لا وجود فعلي لها في المدرسة وغيرها.

الثالث: المعتدل وهو أخطرها لأنه يحبذ التعريب دون ضرورة الاستعجال فيه. و يدعو الى التعقل والموضوعية والى الازدواجية والاهتمام باللغتين العربية والفرنسية معاً. ودعوة هذا الاتجاه للاعتدال، لأنه لا يجرؤ على اتخاذ موقف عدائي من كلا اللغتين، ويخشى التعريب. وضمناً يلتقي المعتدلون في الهدف النهائي مع اعداء التعريب لأنهم سيصلون الى نفس النتائج ان نجحوا.

و بعد ، فلم الخوف من التعريب ؟ ان الداعين اليه يطالبون بحق مشروع و باعادة اللغة القومية ، لغة الشعب ، الى وضعها الطبيعي لم يدعوا يوماً الى تحطيم اللغة الفرنسية والغائها نهائياً . و يريدوها أن تبقى ولكن كلغة اجنبية وليست لغة قومية أو أساسية (غلاّب ، ١٩٧٧ ص ٩٥) .

ومما لا شك فيه أن أصحاب الثقافة الفرنسية هم ضحية ظروف استعمارية مؤسفة ولذا يجب أن يتخذوا موقفاً مؤيداً للتعريب لأن تلك الظروف لم تكن طبيعية وفرضت على الشعب فرضاً . لقد كانت قيادة الثورة في الجزائر تؤكد باستمرار على أن التعريب ضرورة قومية والتزام ثوري لابد من تحقيقه . فقد رد الزعيم الجزائري احمد بن بيلا يوماً على معارضي التعريب قائلاً : « نحن عرب . نحن عرب . نحن عرب » . وهو بهذا يؤكد ما جاء في ميثاق الثورة الجزائرية الصادر في طرابلس الغرب حيث ذكر : « انه لا يكفي ان تكون ثقافتنا ثقافة قومية فحسب ، بل يجب ان تكون هذه الثقافة ثورية في أهدافها .. ومما لا جدال فيه ان لغتنا القومية قد عانت تخلفاً كبيراً كأداة للثقافة . غير أن هذا التخلف ليس ناتجاً عن قصور في ذات اللغة العربية ، ولكنه راجع الى السيطرة الاستعمارية التي تعرضت لها بلادنا ، فالمطلوب اذن بالحاح هو أن نطورها وفقاً لخطة منهجية مدروسة . ولكي تؤدي هذه الخطة ثمارها يجب أن تعمم اللغة العربية على جميع المستويات ، وأن نجعل منها لغة الحياة اليومية والتعامل ، لغة المدرسة والادارة والمصنع ، كما هي لغة الجبل والمزرعة والبيت ، يجب أن تكون لغة أهل المدينة كما هي لغة أهل القرية » (النقاش ، ١٩٦٤ ص ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩) .

وهناك ملاحظة جديرة بأن تذكر هنا ، وهي أن معركة التعريب في المغرب العربي تختلف في ابعادها وطبيعتها والعراقيل امامها لا بل والمطلوب منها مما هو متعارف عليه في المشرق العربي حول التعريب .

ان المسألة بالنسبة للمغرب العربي ليست مسألة تعريب المصطلحات العلمية والفنية في بعض مجالات التعليم أو غيرها : رغم أهميتها ، ولكنها قضية لغة وثقافة اجنبية متأصلة لا بد من اجتثاثها وإحلال الثقافة العربية محلها ، وان عملية تعريب المصطحات الفنية والعلمية جزء منها ، وليست قضيتها الاساسية ، وتعتبر العملية جزئية اذا اقتصرت مهمات لجان التعريب ــ أو كما تسمى في مراكش « مصلحة

التعريب » في عملية تعريب المفردات اللغوية ، أما إذا كانت خطتها ان يكون هذا العمل جزءاً من مهماتها وأولويات لا بد منها فذلك هو الطريق الصحيح (حقي ، ص ١٩٩) .

العلاقة بين التنمية والتعريب :

ان العلاقة بين التعريب والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ضرورة وعلاقة تبادلية ، ذلك ان الوضع الاقتصادي لكل قطر ومواردة تحدد المستوى التعليمي في حدود الامكانات المتاحة لهذا البلد في مجال توفير الظروف المطلوبة في هذا الميدان واستيعاب المتعلمين في المجالات المختلفة . ثم ان التعليم مسؤول عن توفير الطاقات البشرية اللازمة في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية بتوفير الافراد المتعلمين وذوي الخبرة والانتفاع بامكاناتهم ضمن خطة مدروسة متكاملة تحفظ التوازن بين ضرورة تعميم التعليم والزاميته و بين حاجات المجالات الاقتصادية للمتعلمين وفتح المجال أمامهم لتطوير البلاد ونهضتها ، كما يجب أن يكون هناك توازن بين تقرير مبدأ الكم وأهمية الكيف في السياسة التعليمية بالتأكيد على رفع مستوى الخدمة وربطها بعمليات التنمية في المجتمع في المجالات المختلفة واحتياجاتها الحاضرة والمستقبلة . وعندما تأخذ التنمية معنى شمولياً يتجاوز النمو وتشمل النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، فإن علاقة معينة لا بد منها بين الوضع الاقتصادي والتطور التربوي والتعليمي . لقد كانت الحالة الاقتصادية الموروثة عن الاستعمار في بلدان المغرب العربي بعد الاستقلال متدهورة وكانت بحاجة الى وقت وعمل ثوري يوفر لها امكانات التقدم واختصار الزمن ، وهذه ولا شك لها علاقة مباشرة وغير مباشرة بعملية التعريب ، ذلك لأن الانظمة الوطنية الجديدة ، في حدود توفر الامكانات الاقتصادية تستطيع أن تخطو على طريق التعريب خطوات هامة ومتقدمة ، وضعف هذه الامكانات ، ولا شك يشكل عائقاً امام التعريب والتعليم بشكل عام .

المعوقات في طريق التدريب :

بعد التركة المثقلة التي خلفها الاستعمار في جميع المجالات اصبحت هناك عدة معوقات لعملية التعريب بعضها من الأمور الطبيعية في مثل ظروف أقطار المغرب العربي و بعضها كان بالامكان تجاوزها وتلافيها .

وأول هذه المعوقات هو ضعف الامكانات الاقتصادية بعد الاستقلال ، والتي كان لها تأثير على عملية التعريب ، ذلك ان تعريب التعليم وجلب المدرسين و بناء المدارس ــ ودور المعلمين وغيرها من الاشياء المطلوبة تحتاج الى امكانات اقتصادية كي تسير عملية التعريب في الطريق الصحيح والسريع .

وثاني هذه المعوقات هو مدى جدية دول المغرب العربي في قضية التعريب . و بعض هذه الدول ، مثل الجزائر ، اعتبرتها من الأولويات في عملية بناء البلاد بعد الاستقلال ، و بعضها لم تكن عنده هذه الرؤية الجدية ، مما أثر على عملية التعريب .

الثالث ، محاولات القوى الاستعمارية و بعض العناصر المحلية تشجيع لغات الاقليات في المغرب العربي مثل البربرية بالاضافة الى التركيز على اللهجات العامية واضعاف اللغة العربية الفصحى (غلاّب ، ١٩٧٧ ، ص ١٨٧) .

الرابع ، ان الاتجاهات المحلية في اقطار المغرب العربي المعارضة لعملية التعريب والتي أوضحنا طبيعتها وفلسفتها تشكل عائقاً في طريق التعريب .

الخامس ، اسلوب التعريب نفسه . فبعض أقطار المغرب العربي بدأت بتعريب التعليم في المرحلة الابتدائية ثم المراحل الأخرى كأسلوب يحقق التعريب الشامل مستقبلاً و بعضها اكتفى بالنشاط الاعلامي المحدود ، والتعريب الشكلي لبعض المجالات والمعاملات في الدوائر الرسمية وغيرها .

السادس ، دور الدول العربية المشرقية خاصة في عملية التعريب في المغرب العربي ، فمنذ أن بدأت أقطار مغربنا العربي المعركة ، بعد نيلها الاستقلال ، كان من المفروض أن تبادر الدول العربية والجامعة العربية بشكل جدي في مساعدة هذه الاقطار في التعريب والتقييم البسيط لدور الدول العربية في ذلك يوضح لنا أنه لم يكن بالمستوى المطلوب فنياً واقتصادياً .

ان تقييم عملية التعريب في أقطار المغرب العربي توضح لنا أن معركة التعريب لا تزال قائمة وان طريقها طويل . ان التعريب يعاني من المشكلات الكثيرة ولا يزال متروكاً في بعض الاقطار هناك أو بعض المؤسسات الى عامل الزمن كي يحلها . لقد كان الصراع بعد الاستقلال مباشرة بين ثقافتين فرنسية وعربية ، أما اليوم فهو بين أنصار التعريب وأنصار الثقافة الغربية من المواطنين (٤) (غلاّب ، ١٩٧٧

ص ١٨٧) و يبقى الريف ــ كما كان دائماً ــ محافظاً على اللغة العربية و يتحدث بها مواطنوه بلهجات محلية .

ومما يؤسف له ان عملية التعريب ، رغم أنها قضية هذه المناطق وضمن سياستها ، إلا أنها في بعض أقطاره تخضع لجهود فردية من قبل بعض المسؤولين في الدولة . وإذا كنا نركز على السلبيات التي تؤثر على التعريب ، فلا يعني ذلك أن الصورة قاتمة جداً ، بل كان بالامكان أن تكون أفضل مما هي عليه خلال السنوات التي خلت منذ الاستقلال وأن تكون قضية عامة وأساسية تتجنب وتتجاوز السلبيات والمعوقات التي تؤثر عليها وتعطل من مسيرتها .

جدول (٢)

عدد ساعات تدريس اللغة العربية والفرنسية
في المرحلة الابتدائية الجزائر ١٩٦٢ ــ ١٩٦٦ (٥)

	السنة الاولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة	السنة السادسة
اللغة العربية	١٥	١٠	١٠	١٠	١٠	١٠
اللغة الفرنسية	ــ	ــ	ــ	ــ	٢٠	٢٠

٥ الابراهيمي ، من تصفية الاستعمار الى الثورة الثقافية ، ص ١٢٠

جدول رقم (٣)

عدد المعلمين المعربين في المدارس الابتدائية
وتصنيفهم المهني(*) الجزائر ٦٢ ــ ٦٦

جزائريون	غير جزائريين	المهنة	العدد	جزائريون	غير جزائريين
٩٥٠٠	٣٥٠٠	معلم	٣٥٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠
		مساعد	٢٠٠٠	٥٠٠	١٥٠٠
		ممرن	٧٥٠٠	٧٠٠	٥٠٠

٥ الابراهيمي ، من تصفية الاستعمار الى الثورة الثقافية ، ص ١٢٠

يلاحظ ان عدد المعلمين الجزائريين قليل وان نسبة ٥٧٪ من هؤلاء من الممرنين أي أنهم من المعلمين الذين يحتاجون الى المزيد من التكوين الثقافي والتربوي واللغوي .

جدول رقم (٤)

تدريس اللغة العربية وعدد المدرسين
في المرحلة الثانوية (*) الجزائر ٦٢ ــ ٦٦

السنة	عدد الساعات	عدد أساتذة اللغة العربية	جزائريون	غير جزائريين	مجموع المدارس المعربة
اولى النهائية	٨ ٥	٨١٢	٦٠٠	٢١٢	٥

* الابراهيمي ، من تصفية الاستعمار الى الثورة الثقافية ص ١٢٣

اقيمت هذه المدارس بعد الاستقلال لا كثانويات بل لاستقبال التلاميذ الذين احرزوا الشهادة الابتدائية بالعربية وتخرجوا من المدارس الحرة التي كانت موجودة في فترة الاستعمار والتي كانت تحت اشراف التنظيمات الوطنية .

الهوامش :ــ

١ ــ لماذا اصبح التعليم في ليبيا تابعاً لوزارة الحرب الايطالية؟ انه كان يجب ان يكون تابعاً لوزارة المعارف الايطالية ولكن سياسة التعسف والاخضاع في المستعمرات تقتضي ربط حتى القضايا التعليمية والتربوية بالمجال العسكري ، لأن سلطات الاحتلال كانت تريد اهدافاً محددة من عملية التعليم في ليبيا ، لذا ربطته بوزارة الحرب في روما .

٢ ــ في وقت تنتقل فيه الجزائر ، بعد استقلالها ، من مرحلة السيطرة الاستعمارية والتخلف الطويل وسيطرة اللغة الفرنسية ، وليس بالأمر السهل الانتقال الى اللغة العربية . بل ان هذا الامر يحتاج الى قرارات جريئة ، لأن عدم اعطاء اللغة العربية اهمية في الامتحانات خطأ يربك عملية التعريب و يؤثر فيها .

٣ ــ في عام ١٩٧٣ شكلت اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم في الجزائر ، تم تشكيلها بعد التمهيد للدور الذي ستقوم به في هذا المجال وايضاً بعد تردد رسمي في مسألة التعريب لاختلاف الاجتهادات التي ستكون عليها .

٤ ــ ومما يؤكد تفوق اللغة الفرنسية هو الوضع الثقافي في تونس حيث ان مراسلاً صحفياً ذكر ان ٨٠٪ من وسائل الاعلام التونسية باللغة الفرنسية ، وان التلفزيون يعتمد على البرامج الفرنسية ، وهناك ثلاث صحف يومية باللغة الفرنسية مقابل صحيفتين باللغة العربية ، ومعظم مواد التدريس بالفرنسية ما عدا مادتي الادب والدين واللغة العربية ، كما ان اللغة الفرنسية هي لغة المعاملات الرسمية في الدولة والمصالح التجارية والادارية في الغالب ... والتعريب محدود في مواد الفلسفة والتاريخ والجغرافيا (تقرير مراسل جريدة الوطن الكويتية ــ الملحق ٢٥ سبتمبر ١٩٧٩) بالنسبة للدراسة الجامعية .

المراجـــع :ـ

١ ــ الابراهيمي ، احمد طالب ، **من تصفية الاستعمار الى الثورة الثقافية ١٩٦٢/١٩٧٢** توزيع الشركة الوطنية ــ الجزائر .

٢ ــ التميمي ، عبدالجليل ، **المجلة التاريخية المغربية** عدد (١) كانون ثاني ١٩٧٤ ، وكذلك عدد ٣ يناير ١٩٧٥ .

٣ ــ التميمي ، عبدالجليل ، **دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس** ، مترجم ، المجلة التاريخية ، تونس عدد يناير ١٩٧٥ .

٤ ــ حقي ، احسان ، **المغرب العربي** ، بيروت ، لان ، لات .

٥ ــ رابح ، تركي ، **التعليم القومي والشخصية الوطنية** ، ١٩٧٥ ، الجزائر .

٦ ــ الشيخ ، رأفت غنيمي ، **تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة** ، ١٩٧٢ ، طرابلس .

٧ ــ الصياد ، محمد المنجي ، **مسيرة التعريب في المغرب العربي** ، مجلة المستقبل العربي ، العدد التاسع سبتمبر ١٩٧٩ .

٨ ــ طوبال ، ابراهيم ، **« البديل الثوري في تونس »** ، بيروت ١٩٧٩ .

٩ ــ العقاد ، صلاح ، **المغرب العربي** ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ، القاهرة .

١٠ ــ غلاب ، عبدالكريم ، **الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات** ، ليبيا ، تونس ١٩٧٧ .

١١ ــ مصايف ، محمد ، **في الثورة والتعريب** ، الجزائر ١٩٧٣ .

١٢ ــ الموقف الوطني والثورة من مسألة الصحراء الغربية ، منشورات **جريدة ٢٣ مارس** ، بيروت ١٩٧٨ .

١٣ ــ النقاش ، رجاء ، **ثورة الفقراء** ، ط ١ ابريل ١٩٦٤ ، ط ٢ مايو ١٩٦٥ .